المشكاة
مجلّة علميّة محكّمة
العدد الخامس- 2007

العصبيّة القبليّة والمفهوم الخلدوني للدّولة
رؤية نقديّة لمقال "تحوّل الخلافة إلى ملك"

د. عمّار العشّي
المعهد الأعلى لأصول الدّين
جامعة الزّيتونة (تونس)

كان مفهوم العصبيّة القبليّة وارتباطها بنشأة الدّول، من أهمّ المفاهيم المحوريّة في مقدّمة ابن خلدون، لقد تناول تفسيرها وتحليل آلياتها في نشأة الدّولة وسقوطها في البابين الثاني والثالث من المقدّمة. وهنا ذهب ابن خلدون إلى أنّ تأسيس الدّول وازدهارها ثمّ انهيارها يقوم أساسا على العصبيّة وينتج عنها، مستمدّاً نظريّته من نماذج دُويلات بربريّة سابقة أو معاصرة له. لكنّه في إطار تحليله لقيام الدّولة الإسلاميّة أقحم عنصر الدّين (الخلافة)، ثمّ أشار إلى انقلاب الخلافة إلى مُلك عضوض. وفي هذا المستوى بالذّات وهو الحديث عن سلطان بني أمّية تملّص ابن خلدون من تحليل عصبيّة المجال الشّامي في بِناء الدّولة والدّفاع عنها تُجاه عصبيّة القبائل القيسيّة الوافدة من الحجاز منذ الفتح وبعده، وكان منها عناصر من قبائل قُريش وكنانة وثقيف. وهكذا تكون الدّولة الأمويّة امتداداً للخلافة من حيث المقاصد، لكنّها أيضاً نِتاج مسار تاريخي دشّنه بنو أمّية قبل الإسلام من خلال علاقتهم التجاريّة بالمجال الشّامي ومصاهراتهم المنتشرة بجنوب الشّام وبالبادية الشّامية حتّى سواحل البحر الأحمر.

ونحن في هذه الورقة، سنفكّر في مسألتين انطلاقاً من فصل انقلاب الخلافة إلى ملك، وهو الفصل 28 الوارد بالباب الثالث من المقدّمة [1]. – ما العصبيّة القبليّة – وهل كانت كما رأى ذلك ابن خلدون وراء انقلاب الخلافة إلى مُلك عضوض، أمّ أنّ حتميّة أخرى كانت وراء ذلك الانقلاب ؟

– ثمّ سننظر في مدى صحّة ذلك الانقلاب، فهل فعلاً تحوّلت الخلافة إلى مُلك أم تلبّست بالمُلك وحافظت على مقاصدها الشرعيّة، فما هي إذن المعايير في مفهوميْ الخلافة والمُلك ؟

I – مفهوم العصبيّة القبليّة ومدى دورها في انقلاب الخلافة إلى مُلك.

قبل ذلك نلاحظ أنّ ما يشدّنا في تعريفات ابن خلدون للتاريخ، أنّها معاصرة وحديثة من حيث التقائها مع الحداثة المعرفيّة في العلوم الإنسانيّة، ومن أمثلة ذلك :

أ. إنّ جوهر التّورخة أو بِناء النصّ التاريخي يقوم على تحقيق في ماهية وغائيّة التجارب وفوائد الاعتبار.

ب. ضرورة التفتّح على العلوم المكمّلة للتّاريخ، وهي علم الإناسة والإثنيات، وعلم الاجتماع (معرفة الحاضر)، وتاريخ الأديان والمذاهب.

ج. التحوّل بمحتوى المعرفة التاريخيّة من كونها مجرّد أخبار لأحداث سياسيّة إلى كونها رؤية شاملة لمجتمع ما في فترة ما. وهو ما ذهبت إليـــه مدرســـة الحوليات في أوروبا منذ الخمسينات من القرن الماضي مع Bd. Lewis-Wallershtein-M..Bloc, F. Braudel, Cl.Cahen. حتّى أصبح التّاريخ يُعرّف اليوم بكونه علم الثّقافة.

د. الوعي بمفهوم التّاريخ من الثّبات إلى الحركيّة، وذلك أنّ أحوال العالم والأُمم وعوائدهم ونِحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج

1) ابن خلدون : المقدّمة، ط. دار الشّعب، القاهرة، [د.ت]، ص ص 180-186.

مستمرّ، إنّما هو اختلاف على الأيّام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال [1].

لكنّ أهمّ مفهوم مركزيّ في الفكر الخلدوني هو مسألة العصبيّة القبليّة التّي تناول تفسيرها وآلياتها في البابين الثاني والثالث من المقدّمة، وذهب ابن خلدون إلى جعلها محرّكاً للتّاريخ السياسي والعُمران البشريّ في نهاية المطاف [2].

والقبيلة كما ورد في معاجم اللّغة وِحدة اجتماعيّة يجمع بين أفرادها الانتماء لنسب موحّد – بنو أب واحد – في حين العصبيّة مشتقّة من العصبة وعصبة الرّجل بنوه وأقاربه من أبيه [3] – القرابة الذّكوريّة أساساً –، وهي ذلك الشّعور باللّحمة بين أفرادها وتلك الممارسة الواقعيّة في التّعاضد والنّصرة والتّماسك بين أبناء القبيلة الذين تجمع بينهم القرابة الدمويّة الذكوريّة، والعصبي هو من يعين قومه ويدعو إلى نُصرتهم ظالمين أو مظلومين. فالعصبيّة تقوم أساساً على رابطة النّسب وما شابهه كالولاء والجوار والحلف لأنّ لحمة الولاء كلحمة النّسب أو قريباً منها على حدّ تعبير ابن خلدون[4]. ولهذا ذهب ابن خلدون إلى تأسيس نظريّة العصبيّة. وجعلها سبباً في قيام الدُّول وانهيارها أيضاً... [5]، ثمّ فسّر آليات التطوّر الدّاخلي للعصبيات في مسار الدّول، فبيّن أنّ العصبيّة هي حِراك اجتماعي لقبيلة أو مجموعة قبائل متحالفة غايتها التغلّب ثمّ المُلك. فالوازع العصبي لا معيار له يستوي أمامه الحقّ والباطل، وإنّما الهدف هو التغلّب أو الغلبة، ومن هنا يتّضح أنّ الهدف الملكي والانفراد بالسّلطان للاستئثار بالنّعيم هو الذي يؤدّي في النهاية إلى ضعف العصبيّة القائمة وظهور عصبيّة أخرى [6].

---

1) ابن خلدون : المقدّمة، ص ص 7-12، 27- 28.

2) ن.م، ص 126 و131- 132.

3) الجوهري : الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية، ط. القاهرة، 1987، ج5، ص 1797. وابن منظور : لسان العرب، بيروت، 1992، ج9، ص ص 232-233، ج11، ص 22.

4) ابن خلدون : المقدّمة، ص 117. وقد سبق أن عبّر الجاحظ على نفس الفكرة، الرسائل، ط. بيروت، 1972، ص 23.

5) ابن خلدون : المقدّمة، ص ص 126- 127.

6) م.ن، ص ص 150- 152.

لكن بالرّغم من اعتماده مبدأ العصبيّة كمبدإ تفسيري لنشوء الدّول وتقلّب أحوالها وظهور العُمران، فإنّ ابن خلدون لا يهتمّ إلاّ بجانب واحد في العصبيّة وهو مفعولها – غايتها – السياسي مشيراً إلى أنّ مسألة وِحدة النّسب تبقى أمراً وهميّاً في الغالب، لأنّ الأنساب تتداخل وتتلاشى ولا تبقى نقيّة بحكم حركيّة الاجتماع البشري. رغم هذا فإنّها تبقى ملموسة في المغرب كما في المشرق، على طول العصر الوسيط وتتقمّص أحياناً قميص الجهويّة الإقليميّة أو الحزبيّة كما في العصر الحديث.

وهذا ما جعل محمد عابد الجابري في أطروحته "العصبيّة والدّولة" يعرّف مفهوم العصبيّة عند عبدالرحمن بن خلدون على أنّها ظاهرة اجتماعيّة- سيكولوجيّة شعوريّة ولا شعوريّة تربط أفراد جماعة ما قائمة على قرابة وهميّة أحياناً، تربطهم ربطاً عندما يكون هناك خطر يهدّد معاشهم، فهي القوّة الجماعيّة التّي تمنح القُدرة على المواجهة والقتال، وهي خاصّة وعامّة... وبما أنّ الأنساب كانت تسقط من جيل إلى جيل، فإنّ الرابطة الحقيقيّة المكوّنة للعصبيّة هي المصلحة المشتركة الدائمة لجماعة ما والتّي يكون فيها أمر المعاش والمصالح عنصراً رئيسيّاً وفعّالاً. فالعصبيّة حينئذٍ تكون مستمدّة من الظروف المادّية العسيرة المفروضة على جماعات البدو، ممّا يُفرز بينهم تضامناً آليّاً من أجل المعاش والحياة [1]. وهنا جمع Lacoste.Y عديد التّعريفات للعصبيّة، منها :

* القوّة المحرّكة لضرورة الدّولة،
* الإحساس الجماعي بالمصلحة المشتركة،
* القابليّة الفِطريّة للعمل القتالي وإنشاء السُّلطة... [2].

ومُجمل القول، فإنّ العصبيّة القبليّة هي ظاهرة اجتماعيّة متّصلة بالبداوة أساساً، وتتفكّ روابطها في عالم الحضّر والمستقرّين، لأنّ أسوار المدينة

1) الجابري، محمد عابد : العصبيّة والدولة : معالم نظرية خلدونيّة في التاريخ الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، 1982، ص ص 259- 263، ص ص 268- 269.

2) لاكوست ايف : العلامة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون، بيروت، 1982، ص ص 128- 130. وكذلك : Talbi Mohamed : Ibn Khaldoun et l'histoire, Ed. STD, Tunis, 1973, pp. 43-45

تعوّضها، وهي ثمرة النّسب وما شابهه، وغايتها التغلّب والمُلك ثمّ الدّولة، وينتج عن ذلك حتماً العمران البشري من حيث أنّه اجتماع وإنتاج وحضارة [1].

ويرى ابن خلدون أنّ العصبيّة بعد بلوغها مرحلة المُلك وهو طور أعلى من السُؤدد أو السّيادة في عالم القبيلة البدويّة [2]، تستقرّ في نِصاب واحد وينفرد أحد أفرادها بالسُّلطان فيظهر في ذلك الطور التّرف والنّعيم، لأنّ غاية المُلك هي السّعة والتّرف فتواجه حينئذٍ العصبيّة مع الجيلين الثاني والثالث انحلالاً بسبب ذلك التّرف أو النّعيم، فتفرض القوّة القتاليّة ويتلاشى نِظام القِيَم الأصيلة وينفتح المجال لظهور عصبيّة أخرى في طور البداوة، فتسقط دولة وتظهر على أنقاضها دولة أخرى. وهكذا أضحت العصبيّة نظريّة دوريّة في تداول الملك والسلطان بين القبائل أو العصبيّات عبر التّاريخ [3].

وممّا يلاحظ أنّ ابن خلدون جعل العصبيّة من أهمّ القوانين الاجتماعيّة في الحِراك الاجتماعي السياسي خاصّة، وبناء التّاريخ واعتبرها أمرا إنسيّاً أو طبيعة بشريّة، فهي حال من أحوال الدُّنيا وهي ضروريّة حتّى لنجاح الدّعوات الدّينية وتبليغ الشّرائع، وما كان لنبي أن يطمئن على نفسه وينجز دعوته لولا احتمائه بعصبيّة في عشيرته تعاضده. فالعصبيّة بالنسبة إلى ابن خلدون هي من حتميات التّاريخ البشري برمّته دينيّاً أم سياسيّاً [4]. لكن الدّين يذمّها عند استعمالها في الباطل والتّفريق، وهذا المقصود بذمّها من طرف الرّسول ﷺ : «ليس منّا من دعا إلى عصبيّة أو مات على عصبيّة»، أو قوله : «اتركوها إنّها نتنة»، لأنّها من بقايا الجاهليّة، أو قول عمر بن عبدالعزيز : لا حِلف في الإسلام أي لا تعصّب في الإسلام [5].

نلاحظ أنّ ابن خلدون قد استمدّها من واقع سياسيّ معاصر له أو سابق له، وخاصّة واقع المغرب العربي في عصره منذ 450هـ/1050م والقرنين المواليين 12م و13م، تعدّد دُوله وتداول الأنظمة السياسيّة وارتباطها بمجموعات

1) Talbi Mohamed : op. cit.p.53

2) ابن خلدون : المقدمة، ص 126.

3) م.ن، ص ص 150- 153، وكذلك : Talbi Mohamed : op. cit. pp.46-50

4) ابن خلدون : م.ن، ص 136 وص ص 142-143.

5) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز، مكتبة وهبه، دمشق، 1954، ص ص 87- 89.

قبليّة بربريّة... [1]. وحاول ابن خلدون توظيفها لتفسير منشإ الدّولة العربيّة الإسلاميّة مع بني أميّة، وذلك من خلال فصل بعنوان "انقلاب الخلافة إلى مُلك" [2].

فكيف انقلبت الخلافة إلى مُلك بمفعول العصبيّة، وإلى أي مدى يصحّ القول إنّ معاوية قد تنكّر لمفهوم الخلافة وشيّد مُلكاً عضوضاً ؟ وكأنّه أراد أن يقول إنّ عصبيّة النّسب والمصالح الفئويّة القبليّة تغلّبت على عصبيّة الدّين المتشبّعة بالمُثل من عدل ومساواة وذات المقاصد العليا والشاملة، وهذا أمر ينزّله ابن خلدون في مسار الطبيعة البشريّة [3].

وفي الحقيقة، إنّ هذا الرأي القائل بانقلاب الخلافة إلى ملك لم يكن رأياً خلدونيّاً محضاً، بل سبقه إلى ذلك عديد القُدامى، ومنهم الجاحظ في إحدى رسائله، حيث قال عن معاوية إنّه حوّل الإمامة إلى ملك كسروي والخلافة إلى منصب قيصري [4] والرأي نفسه نجده عند اليعقوبي والطبري وابن قتيبة، وقد نقلوه عن أهل الورع والتّقوى في النخبة الإسلاميّة المبكّرة والذين عابوا على معاوية توريث ابنه يزيد للحكم، فحرّف مفهوم الشّورى وكرّس مبدأ الوراثة، فكان سعيد بن المسيّب المخزومي من فقهاء المدينة يحتجّ على معاويّة لأنّه حوّل هذا الأمر إلى كسرويّة أو هرقليّة[5].

كما أنّ أبناء الصحابة المعاصرين لمعاوية من أمثال عبدالرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن العبّاس والحسين وعبد الله بن الزّبير، قد احتجّوا على ذلك الأمر ورفضوه، وكان أشدّهم نقداً لمعاوية ابن الزّبير والحسين [6]. وحتّى الفقهاء والقرّاء الذين عاشوا بعد معاوية من أمثال الحسن البصري ومحمّد بن سيرين وعبد الرحمن بن أبي ليلى وسعيد بن جُبير وعامر

---

1) Talbi Mohamed : op. cit.p.20

2) ابن خلدون : م.ن، ص ص 180 -186.

3) Talbi Mohamed : op. cit.p.41-42 :

4) الجاحظ : الرسائل، جمع ونشر حسن السندوبي، ط. الرحمانيّة، القاهرة، 1933، ص 292.

5) اليعقوبي : تاريخ، دار صادر، بيروت، [د.ت]، ج2 ص 232. وابن قتيبة : الإمامة والسياسة، دار المعرفة، [د.ت]، ج1، ص ص 173-174. والطبري : تاريخ، ط. بيروت، [د.ت]، مج3، ص ص 264-265.

6) ابن قتيبة : م.ن، ج1، ص ص 148-149 وص 154 وما بعدها. واليعقوبي : م.ن، ج2، ص 228.

ابن شراحبيل الشعبي، قد استنكروا على معاوية فعلته فندّدوا بتعتيم الشّورى وتوريث الحُكم... [1]. كما أنكروا على معاوية أنّه أوّل من أقام الحرس والشّرط والبوّابين وأرخى السّتور واحتجب عن الرعيّة ومُشيَ بين يديه بالحِراب ومشي في الموكب (cortège) وجعل ديوان الخاتم وجلس على السّرير، واتّخذ المحارب والمقاصير والخصيان، وبنى وشيّد [2]. فهو أوّل من أظهر شارات الملك ومراسمه وأبّهته... وجعل بينه وبين الرّعية مسافة، وقال فيه عمر حينما زار بيت المقدس ومعاوية لم يزل بعد والياً : «أتذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية»، وقال فيه : «هذا كِسرى العرب»[3]. لكن معاوية كان يرتعد خوفاً أمام عمر، واحتجّ له بمقصد دينيّ-شرعي وهو إرهاب العدوّ بالثّغور وإظهار عزّة الإسلام[4].

إنّ تخصيص ابن خلدون فصلاً للحديث عن تحوّل الخلافة إلى ملك يدلّ على اطّلاعه على المصادر التأسيسيّة للتّاريخ الإسلامي، فاحتفظ بذلك الرأي ولم يقدر على رفضه بحكم اقتناعه بمؤسّسة الخلافة التّي عرّفها بكونها «نيابة عن الشّارع في حراسة الدّين وسياسة الدّنيا»[5]. لكنّه لم يحسم موقفه كما فعل القدامى كاليعقوبي، وإنّما بقي متردّداً فلم يقدر على نزع القداسة عن معاوية والخلفاء الأوائل من بني أمّية، فيقول حول علي ومعاوية : «إنّ كلاهما على حقّ أو كلاهما اجتهد وقصد الحقّ»، أو قوله : «وإنْ كان عليّ على حقّ، فإنّ معاوية لم يقصد الباطل»، كما يقول : «والتأثيم مدفوع عن كلا الطرفين أو عن الكلّ من الفريقين ؟» [6]. ولم يحسم أيضاً في خلاف الحسين ليزيد، وخلاف عبدالله بن الزّبير على عبدالملك [7]. فتراه أحياناً يُبرّئ يزيد [8]، وأحيانا

---

1) أبو الفداء : التاريخ المختصر في أخبار البشر، بيروت، 1997، ج1، ص 259. ابن الوردي : تاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ج1، ص 160.

2) اليعقوبي : م.ن، ص 232. والطبري : م.ن، نفس المكان السابق.

3) الطبري : م.ن، نفس المكان السابق.

4) ابن خلدون : المقدمة، م.س، ص 181.

5) م.ن، ص 170-171 و ص 195. وهو نفس التعريف الذي ذكره الماوردي : الأحكام السلطانية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990، ص 29.

6) ابن خلدون : م.ن، ص ص 183 – 184 وص 191.

7) م.ن، ص 194.

8) م.ن، ص 189.

يُدينه [1]. ويبدو أنّه لا يريد أن يظهر متشيّعاً، كما لا يريد أن يظهر أمويّاً أو عثمانياً.

يتّضح من خلال ما تقدّم أنّه في موقف حرج ولم يجرأ على تأثيم أحد من أطراف النّزاع السياسي في تلك الفترة المبكّرة، وهذا ما يدلّ على التصاقه بموقف أهل السنّة والجماعة الذين انحدروا عن المرجئة، والذين أرجأوا الحكم على عليّ ومعاوية وأنصارهم، ولم يكفّروا أحدا من الفريقين. لكن ابن خلدون في مواضع أخرى تراه يدافع عن أهل البيت (الأدارسة) احتجاجاً بالقرآن ويرجو أن يدافعوا عنه يوم الدّين.

ورغم هذا التردّد في تأثيم معاوية وهو نقطة البدء في انقلاب الخلافة إلى ملك، فإنّنا نلاحظ ابن خلدون يُخضع المسألة لنظريّة العصبيّة حتّى يخرج من مأزق التأثيم، فهو يرى أنّ عصبيّة بني أمّية قد انطفأت خلال ظهور الرّسالة أي النبوّة والوحي ولكنّها عادت إلى الاشتغال بعد ذلك [2]، وكأنّ معاويّة قُدّر عليه أن يكون ضحيّة تيّار العصبيّة.

ونحن ها هنا نطرح السؤال حول ما أقرّه ابن خلدون من وجود عصبيّة أمويّة كامنة ثمّ تحرّكت بعد انقضاء الوحي، حيث أشار إلى أنّ عصبيّة مضر كانت في قريش وعصبيّة قريش في بني عبد مناف وعصبيّة بني عبد مناف مُنْصبّة في بني أمّية، فما الذي أهّل بني أمّية لأن تكون مصبّ العصبيّة العربيّة، والحال أنّ الإسلام قاوم التعصّب وأنّ وهج النبوّة لم ينطفئ بعد، فهل فشل الدّين في تطهير العرب من التعصّب ؟

لم يكن ابن خلدون مهتمّاً بهذا الجانب وإنّما أراد أن يبررّ ذلك التحوّل من واقع الخلافة إلى واقع المُلك بالعصبية، وكأنّه أراد أن يقول إنّ الطبيعة والمصالح أقوى من الدّين، والذي يخضع أحياناً للمصالح الإنسية أو يوظّف لها كما توظّف العصبيّة[3].

لم يبحث ابن خلدون كثيراً في الموضوع رغم اطّلاعه على المصادر، ويتّضح أنّ تأثير العصبيّة كان له دور في ذلك المسار، لكن ليس بالصّفة الآليّة

---

1) م.ن، ص ص 193-194.

2) ابن خلدون : م.ن، ص 193.

3) م.ن، ص 136. وكذلك : Talbi Mohamed ….op. cit. p. 110 et suivantes .

التّي وضعها ابن خلدون، بمعنى أنّ قلب الدّولة المحمّدية إلى ملك قد بدأ مساره قبل معاوية [1] ذلك أنّ سلطة معاويّة لم تكن هي البداية بل هي النّتيجة. فكيف قفز معاوية من مرتبة السيّد إلى مرتبة الملك ! نجد الإجابة في تتبّع المسار التاريخيّ للأُسرة برمّتها، منذ قرن تقريباً قبل ظهور الإسلام، وتحديداً مع أمّية بن عبد شمس (توأم لهاشم حسب البلاذري). كان عبد شمس فقيراً، لكن هاشم كان ثريّاً وشريفاً [الشرف : العلوّ] لأنّه أسّس الإيلاف وآلت السقاية والرفادة للحجّ، بدأ المنعرج مع أمية بن عبد شمس الذي ذهب تاجراً إلى الشّام حيث بقي عشر سنوات عاد إثرها موسراً، وأضحت له علاقات اجتماعيّة واسعة في بلاد الشّام الجنوبي (الأردن - فلسطين - بلاد قضاعة) وورث عنه ابنه حرب ذلك الوضع[2]. وزمن النبوّة أصبح حفيده أبي سفيان زعيم قريش وزعيم تجارة الإيلاف مع بصرى وغزّة والبلقاء عموماً[3]. ورث أبو سفيان القوّة المادّية ومع ذلك الرّياسة والقيادة (قيادة القوافل)، وحتّى القوافل العسكريّة، لأنّه يوصف بكونه جرّاراً Gd meneur[4].

الخلاصة أنّه حصلت فعلاً لدى بني أمّية قوّة مادّية ثمّ اجتماعيّة أهّلتهم لأنّ يكونوا محلّ عصبيّة تنزع إلى التغلّب ثمّ المُلك، لكن ظهور الإسلام أفشل ذلك أو أجّله. لكنّ ابن خلدون لم يتوغّل في تفسير ذلك المسار ممّا يُوهم المتتبّع له أنّ عصبيّة بني أمّية التّي أفضت إلى قلب الخلافة إلى مُلك هي طارئة بعد الإسلام، والحال أنّها سابقة له بقرن تقريباً. وحتّى لو لم يكن الإسلام ما كان لبني أمّية أن يؤّسسوا ملكاً بسبب أعراف قريش وهي لِقاح وجيران الله، أي تهيمن على المقدّس ممّا جعلها محلّ تقدير ومصدر نفوذ على العرب قاطبة[5].

بعد وفاة الرسول- ﷺ- مباشرة انفجرت من جديد عصبيّة بني أمّية على لسان أبي سفيان الذي أسلم عام الفتح (8هـ/ 630 م)، فإثر مؤتمر سقيفة بني ساعدة وانتخاب أبي بكر (من تيّم : قبيلة ضعيفة) كان يصيح : «ما بال هذا

1) خليل أحمد خليل : العقل في الإسلام، دار الطليعة، بيروت، 1993، ص 85.
2) البلاذري : أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعـارف، ط.3، [د.ت]، ج1، ص ص 58-61
3) ابن حزم الأندلسي : جوامع السيرة النبوية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، [د.ت]، ص 81.
4) ابن حبيب البغدادي : المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، [د.ت]، ص 246.
5) ابن حبيب : المنمّق في أخبار قريش، دار عالم الكتب، بيروت، 1985، ص ص 155-156.

الأمر في أقلّ حيّ من قُريش ؟»، «والله لو شئت لأملأنّها عليه خيلاً ورجالاً»، ثم «أين المستضعفان عليّ والعبّاس»[1]، يريد أن يجعلها في عبد مناف إن لم تكن في بني أمّية، لأنّ أبا سفيان اشتبه عليه الأمر، فحتّى عام الفتح كان يعتقد أنّ محمداً صلى الله عليه وسلّم كان يبني مُلكاً، قال للعبّاس : «لقد أضحى مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً»، فقال له العبّاس : «إنّها النبوّة !» [2].

هكذا برزت العصبيّة خلال مؤتمر السقيفة ثمّ انكفأت بسبب قوّة الدّين ووهْج النبوّة حتّى إذا جاء عثمان إلى الخلافة وكان شيخاً مسنّاً تغلّبت عليه أسرته الأمويّة وكان منهم مروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان... [3] فمع عثمان اشتدّ المنزع العصبي للأسرة الأمويّة وذهب عثمان ضحيّة ذلك المنزع لأنّه قرّب بني أمّية وآثرهم بالمال وولاّهم المناصب، فثار عليه القرّاء من الكوفة والبصرة ومصر فقتلوه. وبالرّغم من دفاع عثمان على نفسه من زاوية شرعيّة كما نقلت ذلك المصادر، منهم البلاذري [4] وابن العربي في العواصم من القواصم [5]، فإنّ عديد المصادر وصفت سياسة عثمان على أنّها عصبيّة لبني أمّية لأنّه أرجع الطرداء وولّى اللّعناء منهم وآثرهم... [6]، فحصلت الفتنة بمقتله وحرب الجمل أوّلاً ثمّ بعصيان معاوية واستبداده بولاية الشّام (Syrie) وحربه لعليّ في صفّين ثمّ انفراده بالسلطة والخلافة في عام 40-41هـ/ 662-663م (عام الجماعة) بعد اغتيال عليّ وتنازل الحسن[7].

ما يهمّنا هنا هو تطويق هذا السؤال، فهل حصل استبداد معاوية بالحكم وقلب الخلافة إلى ملك وفق آليات عصبيّة أي وفق النظريّة الخلدونيّة، فهل كان منشأ الدّولة عصبيّ أم ثمّة واقع آخر حتّم ذلك ؟

---

1) الطبري : تاريخ...، ط. بيروت، [د.ت]، مج، ص 237.

2) ابن حزم الأندلسي : المصدر السابق، ص 183.

3) البلاذري : أنساب الأشراف، ط. القدس، 1936، ج5، ص ص 25-28. وإبراهيم محمود : الفتنة المقدسة، بيروت، 1999، ص ص 65- 73.

4) البلاذري : نفس المصدر والمكان.

5) ابن عربي : العواصم من القواصم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 48 وما بعدها.

6) اليعقوبي : تاريخ، دار صادر، بيروت، [د.ت]، ج2، ص ص 173-175.

7) الطبري : المصدر السابق، مج3، ص 3 وما بعدها. وكذلك هشام جعيط : الفتنة، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، 1992، ص 141 وما بعدها. وص 173 وما بعدها.

II – هل انقلبت الخلافة إلى مُلك أم تلبّست به وحافظت على مقاصدها ؟

يبدو لنا أنّ عصبيّة بني أمّية قد مرّت بنكسات فتراجعت تجارتهم منذ معركة بدر التّي قطعت الإيلاف، ثمّ تشتّت أموالهم إثر معركة الأحزاب ثم في خلافة عمر الذي كان شديدا عليهم، ثمّ بعد مقتل عثمان خاصّة حصل لهم انطواء ولم يقع بروزهم من جديد إلاّ بعد انفراد معاوية بالحكم بسنوات وخاصة زمن يزيد الأول[1]، في وقت كانت فيه بطون أخرى من قريش تزداد قوّة بفضل عائدات الفتوح، كبني تيّم ومنهم طلحة بن عبدالله (تيّمي) والزّبير بن العوام (أسدي)، والمسعودي يذكر ثرواتهم الطائلة [2]. لكن بقي لبني أميّة إرث رمزيّ بأرجاء الشام ورثه معاوية ونمّاه واستثمره لمدّة عقدين من الزّمن وهو والٍ على الشّام من18-41هـ/662م، فمتّن علائقه مع أشراف قضاعة هناك، وهي مجموعة قبائل عربيّة منتشرة بالشّام منذ قرون سابقة للإسلام وهي غسّان لخم – جذام– بهراء – عذرة – عاملة – السكون– السّكاسك، وخاصّة كلب[3]. فتزوّج ميسون بنت بحدل الكلبي –نصرانيّة من البادية السوريّة – ، وبحدل هو أحد أشراف كلب، وأنجب منها ابنه يزيد (عام 25هـ/ 647م)، فأضحت قبائل كلب تشكّل عصبيّة معاوية وتشدّ أزره أكثر من مضر[4]، وكانت كلب من الأرحاء وفيها المسلمون والنّصارى وفيهم البدوُ والحضرّ المستقرّون بدومة الجندل وتدمر وقرى دمشق الموجودة بالغوطة مثل المزّة، وفي مدن أخرى من فلسطين والأردن وبواديها، وحتّى تخوم الحيرة والأنبار من الشّرق[5]. ثمّ إنّ كلب كانت في حِلف مع عديد القبائل العربيّة الأخرى منهم الغساسنة وعاملة وبهراء ولخم وجذام وبلقين وهكذا أضحى لمعاوية رصيد من العلاقات الاجتماعيّة وظّفها واستثمرها عن طريق استمالة أشراف القبائل خاصّة، ولم يهمل الاعتماد على عديد أشراف القبائل الوافدة مع الفتح وبعده من قيس

---

1) نجدة خماش : الشام في صدر الإسلام، دار طلاس، دمشق، 1987، ص ص 157-158.
2) المسعودي : مروج الذهب، دار المعرفة، بيروت، [د.ت]، مج2، ص ص 342 -343.
3) نجدة الخماش : المصدر السابق، ص ص 82-84.
4) الطبري : تاريخ...، ط. بيروت، [د.ت]، مج3، ص 264.
5) حسين عطوان : الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، دار الجيل، بيروت، 1407هـ/1987 م، ص ص 103- 105.

(قريش) ومضر عامّة، الآتية من الحِجاز ونجد وأرجاء الجزيرة العربيّة، ومن هؤلاء جميعاً استمدّ معاوية قوّته العسكريّة في حربه مع عليّ في معركة صفّين (صفر 37هـ/659م) وكانوا لا يقلّون عن 100.000 أو 85.000 مقاتل[1].

لكنّ خطورة أهل الشّام قد برزت خاصّة بعد معاوية، ففي مرج راهط 64هـ، حينما كاد أن يتغلّب دُعاة ابن الزّبير على الشّام ومنهم زفر بن الحارث الكلابي والضحّاك بن قيس الفهري، تحالفت قبائل الشّام بزعامة كلب وعلى رأسهم حسّان/خال يزيد وفرضت السلطة لمروان بن الحكم[2] الذي تركها لابنه عبدالملك وهو الذي قضى على ابن الزّبير عام 73 هـ بمكّة بواسطة الحجّاج.

هكذا نُلاحظ أنّ العصبيّة المؤسّسة للدّولة الأمويّة هي عصبيّة المجال أو الجغرافي، أي قبائل الشّام العربيّة أكثر من قبائل مضر الحجازيّة ومنها قريش، وبالتّالي يصحّ القول إنّ تحوّل الخلافة إلى ملك بالشّام قد حصل بمفعول عوامل أخرى أقوى من العصبيّة، لأنّ قبائل الشّام لم تكن كلّها بدويّة وإنّما الذين ساندوا معاوية كان جلّهم من الحضرّ الذين تعوّدوا على مبدأي الملك والدولة، لقد عرفوا معاوية ووقّروه[3]. ففي الماضي البعيد عرفت الشّام ممالك الآراميّين وبني إسرائيل والأموريّين (أو العموريّين) والفينيقيّين... المهمّ أنّه قبل فتح الشّام كانت تلك القبائل من غسّان ولخم وجذام وكلب وعاملة وبهراء تعيش تحت وطأة الحكم البيزنطي، وكان فيهم الكثير من النّصارى وتسمّيهم المصادر بـ"العرب المستعربة"[4]، واشتغل الكثير منهم مع الرّوم وعرفوا آليات السلطة من جباية وكتابة كوسيلة سيطرة وضبط، وعرفوا حتّى الاقتصاد النّقدي الذي يُفضي إلى التفاوت الاجتماعي المادّي وضرورة الدّولة. وبعد هذا الاستعراض فهل حوّل معاوية الخلافة إلى مُلك أم كان ذلك المسار حتميّة تاريخيّة طبيعية فوق مبدإ أو مسألة العصبيّة ؟

---

1) المسعودي : مروج الذهب، م.ن، مج 3، ص 41، مج2، ص 384.

2) الطبري : تاريخ، م.ن، مج 3، ص ص 378- 384. - البلاذري : أنساب الأشراف، ط. القدس، 1936، ج5، ص ص 127-135.

3) نبيه عاقل : خلافة بني أمية، دار الفكر، دمشق، [د.ت]، ص ص 62 - 63. وص 79.

4) الطبري : تاريخ، ط. المعارف، القاهرة، 1962 م، ج3، ص ص 570-571.

كما ذكرنا، كانت الأرضيّة الاجتماعيّة بالشّام مهيأة لإفراز المُلك والدّولة في آن واحد، بالرّغم من أنّ ابن خلدون لا يفرّق في كثير من الأحيان بين دولة/سلطان/حكم. وفضلاً عن تأهّل المجتمع العربي الشّامي لقبول الملك، فقد وجد معاويّة أدوات أخرى حتّمت عليه أن يرتقي بمظهر الحكم الرّاشدي إلى مستوى الملك منها كثرة النّصارى (15 كنيسة في عهود صُلح دمشق عام 15هـ/637م) [1] الذين استعملهم في الكتابة والجباية ووظّف علومهم، فكان سرجون بن منصور الرّومي[2] كاتبه وصاحب أمره وعلى خراج دمشق، وكان ابن آثال النصرانيّ طبيبه الخاصّ وعامل الخراج على حِمص، كما كان أحد النّصارى من بين مؤدّبي ابنه يزيد في حين كان Marianus معلّماً لخالد بن يزيد وهو الذي علّمه الكيمياء[3]. كما كان من بين الفاتحين للشّام بقايا أُسر ملكيّة جاءت من اليمن بعد أن استنفرها أبوبكر، فكان منهم مثلاً ذو الكلاع الحميري الذي شارك في الفتح وهو يحمل تاج الملك وزيّ الملوك، وجبلة بن أيهم الغسّاني الذي دخل الإسلام ثمّ ارتدّ وفرّ إلى بيزنطة[4].

فما فعله معاويّة من تغيير في مظاهر السلطة من أنّه جعل الشرطة والحرس واحتجب عن النّاس وبنى وشيّد.... فهذه أمور غير رئيسيّة في قراءة الانقلاب من الخلافة إلى الملك، وإنّما السياسة الحقيقيّة التّي جعلت الفقهاء ينتقدون معاويّة نجد جذورها قد ظهرت مع عثمان الذي قيل فيه : إنّه بدّل وغيّر وآثر الأقارب وولّى الطلقاء وأرجع الطريد وتصرّف في بيت المال والصدقات وضرب عمّار وابن مسعود وسيّر أبا ذرّ[5].

نستخلص من هذه الانتقادات المعايير الأساسيّة في مفهوم الخلافة، فهي معايير تتّصل بمال المسلمين، أي عدم الاستئثار به وتتّصل بمكانة أهل القدمة والسابقة في الإسلام. كان عمر حريصاً على عدم الإخلال بهذه المعايير، فكان

1) عبدالقادر بدران : تهذيب تاريخ دمشق، دار المسيرة، بيروت، 1979 م، ج1، ص ص 241-242.
2) الطبري : تاريخ، ط. بيروت، م.ن، مج3، ص 264.
3) أسيمة العظم : المجتمع في العصر الأموي، دار العلم للملايين، بيروت، 1996، ص 47.
4) الطبري : تاريخ، ط. المعارف، م.ن، ج3، ص 570. الواقدي : فتوح الشّام، دار الجيل، بيروت، [د.ت]، ج1، ص 21 وص 125 وما بعدها.
5) البلاذري : أنساب الأشراف، م.ن، ج5، ص ص 25- 30. وابن قتيبة : الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزيني، دار المعرفة، بيروت، [د.ت]، ج1، ص ص 35-37.

كثيرا ما يسأل أصحابه أخليفة أنا أم ملك ؟ فيقولون له «إن أنت جبيت درهماً من أرض المسلمين أو أكثر أو أقلّ ثمّ وضعته في غير حقّه فأنت ملك غير خليفة »[1]. وكان عمر يمتنع عن تنفيل أهل قرابته حتّى لا يلقى ربّه خائناً، ولا يستشير إلاّ أهل القدمة والسّابقة في الإسلام، ويقول ما للطّلقاء في هذا الأمر من شيء[2]. هكذا وضع عمر معيارين لمفهوم الخلافة : حفظ المال لأهل الحقّ فيه، والاعتماد على أشراف الإسلام (أهل البلاء والعلوّ في الإسلام). إنّ المعيارين الأخيرين جعلا نعيم بن حمّاد (ت229هـ/843م) يعرّف الخلافة على أنّها هُدى ورحمة وما خالف ذلك، فهو الملك، أو قوله الخلافة هدى ورحمة أمّا الملك فغلبة واستئثار أو جبريّة[3]. فهل استأثر معاويّة بأموال المسلمين فضلاً عن استعماله للنصارى ولغير أهل القدمة والسابقة ؟

صحيح ثمّة أخبار ومرويات تُثبت ذلك، فكان يكتب إلى عامله على خراج العراق أن أرسل إليّ ما أستعين به، فكان يمدّه بالأموال... وكان معاوية بعد عام الجماعة 40-41هـ/662-663م يستصفي من كلّ بيضاء وصفراء والروائع، واستصفى من أملاك كسرى ومن هرب من البطارقة الرّوم بالشّام وكانت عائداته من صوافي العراق 100.000.000 درهما = 6/1 خراج العراق[4]. وجعل لنفسه ولأقاربه ضيعات بأراضي الشّام الخصبة منها عسقلان والغوطة... [5] لكن ثمّة معيار ثالث يُدين معاوية وبني أمّية كلّهم، ما عدى عمر بن عبد العزيز، هو مسألة تعتيم الشّورى وإقرار الحكم الوراثي، إذ أنّ معاوية كان أوّل من جعل الخلافة وراثيّة بتولية العهد لابنه يزيد[6]. وهنا كان الفقهاء

1) الطبري : تاريخ، م.ن، ط. المعارف، ج4، ص 211.

2) الطبري : المصدر نفسه، ص 203.

3) نعيم بن حمّاد : كتاب الفتن، تحقيق أحمد بن شعبان ومحمد بن عيادي، مكتبة الصفاء القاهرة-الدّار البيضاء، 2003 م، ص ص 61-62.

4) اليعقوبي : تاريخ، دار صادر، بيروت، [د.ت]، ج2، ص 218 وص ص 233-234. - والطبري : تاريخ، م.ن، مج3، ص 217.

5) اليعقوبي : م.ن. - والجهشياري : الوزراء والكتّاب، دار الفكر الحديث، بيروت، 1988 م، ص 23.

6) الطبري : م.ن، ص 247. - والمسعودي : مروج الذهب، دار المعرفة، بيروت، [د.ت]، ج3، ص ص 36-37. واليعقوبي : م.ن، 228.

يقولون إنّ معاوية حوّل هذا الأمر إلى قيصريّة وكسرويّة، لأنّ العرب لم تعهد وراثة المناصب، حتّى مع سيّد القبيلة.

وإذا تركنا جانباً هذه المعايير الثلاثة التّي أخلّ بها معاوية حتّى اتّهم بشبهة الملكيّة، نرى أنّ معاوية كان يدافع عن نفسه بحُجج إسلاميّة، فكان يقول : «لم أزل أطلب الإمارة مذ قال لي صلى الله عليه وسلّم : يا معاوية إذا ملكت فأحسن»[1]. وإن صحّ هذا فإنّ الرسول استشرف فيه المنزع الملكي وسكت عنه. فمعاوية أدرك النبوّة وصاحب الرسول وكتب له وسمع منه التّفسير فأدرك بكلّ وعي أنّ الإسلام لا يتعارض مع الملكيّة إنّما يذمّ فيها الاستئثار والتنكّب عن الحقّ، ورأى أنّ الله قد أتى بعض أنبيائه الملك والحكم واعتبره نعمة ومنهم من سار في النّاس بسيرة الملوك وأبّهتهم... إذن ثمّة في الإسلام ما يبرّر ضرورة التحوّل بالخلافة كمفهوم بسيط في الحكم إلى مُلك كمفهوم غالب متعالي ومفارق للرعيّة، لكن في سبيل مقاصد عُليا تقرّها الشّريعة، حتّى أنّ فقهاء السياسة مثل الماوردي ذهبوا إلى القول «إنّ السلطان بأدوات مختلفة كان لازماً بل شرطاً لشدّ عُرى الجماعة وجلب المصالح ودرء المفاسد»، ثمّ نُقل عن المأثور أنّ عثمان قال عن الرسول ﷺ : "إنّ الله يردع أو يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن..." [2]. وقال عثمان : «يردع الله بالسلطان ما لا يردع بالقرآن...» [3]. فالملك والسلطان في نظر كلّ فقهاء السياسة متلازمان، فالملك هيئة وهيبة والسلطان إجراء للنّفوذ والردع والضبط وبصفته تلك لا ترفضه الشريعة طالما كان حارساً للدّين، متحرّياً فيه، وغير متنكّب عن العدل والحقّ[4].

كما كان معاويّة واعيّاً بأنّ مصير الخلافة الحتميّ هو أن تتلبّس بالملك حتّى تقدر على الردع والعنف الشرعيّ في سبيل حماية الدّين، فكان يغضب حينما يُسلّم عليه بتحيّة الملوك، ويقول لمن سلّم عليه بذلك «أما تقول السّلام عليك يا أمير المؤمنين.. أو يا خليفة للمسلمين» [5]. لكن معاوية كثيراً ما

---

1) السيوطيّ : تاريخ الخلفاء، دار الجيل، بيروت، 1988، ص 234.
2) الماوردي : أدب الدنيا والدّين، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1979، ص ص 114-115.
3) م.ن، ص 113.
4) م.ن.
5) اليعقوبي : تاريخ، م.ن، ج2، ص 217.

استعمل الغلبة والعنف ضدّ أهل الورع والتقوى الذين نقدوه وهدّدوا سلطانه وأشهرهم حجر بن عديّ الكندي الذي قتله سنة 51هـ/671م[1].

وفوق المراسم والشّارات، وبناء قصر الخضراء وبها دار الشُّرط والحبوس، كان معاوية لا يتخلّف عن مهمّة إمامة الرّعية، ويُقال إنّه أوّل من جلس على المنبر أو أوّل من قدّم الخطبة على الصّلاة حتّى يشدّ إليه النّاس... ورُوِيَ عنه عديد الأحاديث، وهكذا تلبّس مُلكه بسربال الخلافة، لكنّه لم يكن مستبدّاً فكان يقول :«لا أحول بين النّاس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا»[2]. وبدأت تظهر في عهده ثنائيّة في المصطلحات دينيّة/سياسيّة= الطاعة والجماعة – السلطان – الملك – السياسة – اللّين/الشدّة... بل ذهب إلى الاعتراف بواقع فضل الإسلام على الدّولة مخاطباً القرّاء وهو لم يزل بعدُ والياً (33هـ/653م) «أتنقمون على قريش أن أعزّها الله وأقام عليها ملكاً وجعل فيها الخلافة...» [3]. هذا القول يضمر واقعيا أنّ الخلافة لا بدّ لها من ملك تستمدّ منه السلطان فوق الوازع الدّيني لإقرار النّظام والانضباط، وهذا ما جعل الكثير من المحدثين والفقهاء، منهم السيوطي يجعل معاوية من بين خلفاء الهدى والرحمة ودين الحقّ [4].

لكن ما أثار حفيظة ابن خلدون من خلال فصله المذكور هو تغلّب صـــورة الملك من حيث أنّه غلبـــة واستئثار (101 هـ/719م – 105 هـ/723م) مع الجيل الثاني من خلفاء بني أميّة [5]، وتحديداً منذ يزيد II بن عبد الملك 101 هـ / 719م – 105 هـ / 723م –105هــ، لكنّ هشام 105 هـ / 723 هــ – 125م / 742م لم يكن مبذّرا بل كان بخيلاً رغم أملاكه الشاسعة، وكان رسمياً حريصاً على إجراء الشّريعة وإنفاذ أحكامها، لكنّه لم يبلغ درجة التّقوى التّي عُرِف بها عمر بن عبد العزيز (99–717م – 101هـ – 719م) في ممارسة الاستخلاف [6].

---

1) اليعقوبي : م.ن، ص ص 230–231. – والطبري : تاريخ، ط. بيروت، مج3، ص ص 218–220.
2) الطبري : م.ن، ص 268.
3) الطبري : تاريخ، ط. المعارف، ج4، ص ص 319–320.
4) السيوطي : تاريخ الخلفاء، م.ن، ص 15.
5) ابن خلدون : المقدمة، ص ص 184– 186.
6) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، دمشق، 1954، ص ص 33–39.

وإذا رجعنا إلى ما قاله ابن خلدون من أنّ العصبية تتلاشى بعد الجيل المؤسّس لتنغمس في التّرف والنّعيم فتجذب نحوها عصبيّة أخرى من عالم البدو، أكثر قدرة قتاليّة ونقاوة في القيَم، فإنّ هذا الأمر لا ينطبق على سقوط بني أمّية التّي سقطت بعد ثلاثة أجيال، لكن ليس بالصورة التّي نظّر لها ابن خلدون، لأنّ البــذخ لم يكن سبباً في سقوطها مع الوليد أو سليمان، كما أنّ الزّهد مع عمر II أو مع يزيد III، (126 هـ / 743م) لم يكن سبيلاً لوقايتها[1].

إنّ جوهر القضيّة في سقوط العصبيّة هو الإخلال بالتزام دستوري بين الخليفة والجماعة الإسلاميّة وهو التنكّر الرّسمي والعملي لشرط دستوريّ من شروط الحكم كما ذكر فقهاء السياسة وهو التزام الإسلام كإطار عامّ وكمنهاج حياة للجماعة المحكومة التّي تعتنقه[2]، كان ذلك مع الوليد II ، الذي أساء للإسلام والقرآن في نظر عديد المصادر[3] من حيث أنّه خليفة أو مسؤول رسمي عن الأمّة، لا من حيث هو شخص مجرّد عن الخلافة، فلم يؤاخذ على فسقه وهو وليّ عهد، لكنّه حوصر وقتل (126هـ / 743م) حينما أظهر ذلك وهو خليفة[4] فأساء لمؤسّسة الحكم التّي كان يمثّلها رسميّاً، وهي الخلافة التّي يسمّيها الجاحظ الزّعامة الكبرى أو رأس الدّين أو أعلى مراتب الدّين. ومن هنا كانت العصبيّة التّي ساندت معاويّة في الشّام هي التّي أفضت إلى القضاء على سلطان بني أمّية، فتحوّل منصب الخلافة إلى بني العبّاس الذين عملوا على طلبه منذ (100هـ / 718م)[5]. ففي سنة (126هـ / 743 م) تآمرت قبائل يمنيّة في دمشق على الوليد II وهي من قضاعة أي كلب ولخم والسّكاسك وغسّان وقتلته بقيادة ابن عمّه يزيد III الذي كان قدريّاً ثمّ انتشرت الفتنة[6].

---

1) راجع الطبري : تاريخ، ط. المعارف، ج7، ص 232. – وابن قتيبة : المعارف، م.ن، ص207. – والمقدسي : البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، [د.ت]، مج 2، ج6، ص 53.

2) الماوردي : م.ن، ص ص 115-116. – وابن خلدون : المقدّمة، ص 244، وهو يُعيد رأي الماوردي في الأحكام السلطانية.

3) ابن قتيبة : م.ن.ص، 206. – الطبري : م.ن، ص 231. – المسعودي : مروج الذّهب، م.ن، ج3، ص ص 225- 229.

4) الطبري : م.ن، ص 231 وما بعدها.– والمسعودي : م.ن، ص 234 وص 239.

5) الدّينوري : الأخبار الطّوال، بغداد، [د.ت]، ص 332- 333.

6) الطبري : م.ن، ص 231 وما بعدها.– والمسعودي : م.ن، ص 234 وص 239.

الخلاصـــــة :

هكذا كانت قراءة ابن خلدون لمسألة التحوّل من الخلافة إلى المُلك قراءة سنّية لا تُدين معاوية والجيل الأوّل لأنّهم كانوا من حملة العلم السُنّي، وإنّما يُدين الجيلين الثاني والثالث من الأسرة الأمويّة الذين أخلاّ بأعراف الاستخلاف. ولئن حصل الانقلاب كما يرى ابن خلدون، فإنّه تمّ تحت مظلّة الإسلام وباسمه ومن أجله، ولهذا فإنّ دولة بني أمّية لم تسقط تحت تأثير عصبيّة خارجيّة بل على إثر تغلغل تيّار إيديولوجي وهو القدريّة في القبائل اليمنيّة التّي ساندت الدّولة سابقاً واستغلّت الحركة العبّاسية ذلك الحدث للاستيلاء على السّلطة في المشرق قبل الشّام.